البـاب الثامن

ابن خلدون والعرب

- اتهامه بعداوة العرب
- من يـرون العكـس
- رؤ يتنـا للموضـوع

ابن خـلدون والعـرب

(١) :

اتهامه بعـداوة العـرب

قد يبدو غريباً بعض الشيء أن يخصص دارس لابن خلدون فصلاً يحمل هذا العنوان ؛ لأن مثل هذا العنوان يدفع إلى كثير من التساؤلات حول ابن خلدون وموقفه من العرب ، بغضّ النظر عن طبيعة هذا الموقف وما إذا كان معهم أو عليهم ، وقد يستبعد المرء لأول وهلة أن يكون رجل مثل ابن خلدون ضد العرب – وهذا شيء منطقي – لأنه عربي حضرمي من حيث الجنس والأرومة ، ولأنه فقيه مسلم ومالكي من حيث الصفة والعقيدة ، ولكن هذا الفقيه المفكر العربي المسلم هو الذي دفع دارسيه دفعاً إلى مثل هذا الموقف الذي يحمل في طياته كثيراً من أدوات الاستفهام وعبارات التساؤل .

إن ابن خلدون قد أفرد في مقدمته عدة فصول جعل عناوينها توحي بالنيل من « العرب » ومروءاتهم وشمائلهم ، وهذه العناوين هي : « العرب لا يتغلبون إلا على البسائط » و « العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب » و « العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصفة دينية » و « العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك » و « إن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل » .

إنها عناوين مثيرة وعدوانية ، بل عدائية إذا ما كان المؤلف يقصد العرب كأمة ،

وأما إذا كان يقصد الأعراب فإن الأمر حينئذ يأخذ وجهاً آخر ، فقد هاجم العرب ونال من مروءتهم كثير من الدارسين غير المسلمين أو دارسون يحملون أسماءً إسلامية ، ولكنهم من حيث جلال العقيدة وأحكامها والاستمساك بها ليسوا بشيء ، فأما إذا كان الأمر متعلقاً بابن خلدون العربى صليبة ، المسلم عقيدة ، الفقيه تكويناً ، فإن الموقف حينئذ يأخذ شكلاً خطيراً لا ينبغى التسليم به قبل أناة من البحث وروية من التفكير .

لقد ذهب الدارسون فى قضية ابن خلدون والعرب مذهبين متباينين ، وشكلوا فريقين متناقضين : فريقاً يرى أن ابن خلدون يقصد العرب جملة ، وفريقاً يرى أن ابن خلدون يقصد الأعراب البدو دون غيرهم ، ولقد قدم كل من الفريقين أسبابه وشرح مبرراته .

يأتى فى مقدمة الفريق الأول الذى يعتقد أن ابن خلدون يقصد تحقير العرب والنيل من إنجازاتهم الأستاذ الدكتور طه حسين فى رسالته التى أعدها فى العقد الثانى من هذا القرن بالفرنسية عن « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » ، أشار فيها إلى العرب وما وصلوا إليه من ضعف وتدهور وتفسخ فى العصر الذى عاش فيه ابن خلدون ، وربط بين حالهم آنذاك ورأى ابن خلدون فيهم ؛ لكى ينتهى إلى القول بأنه « ليس غريباً إذن أن يزدريهم ابن خلدون ، ولا سيما أنه عاش فى ظل الأسرة البربرية المجاهرة بعدائها للعرب الذين خربوا إفريقية الشمالية فى القرن الخامس » .

إن الدكتور طه حسين يعتقد أن حملة ابن خلدون كانت موجهة ضد العرب ، كل العرب ، ويقرر أنها حملة خاطئة وظالمة . وعن قول ابن خلدون « إن العرب يجهلون سياسة الملك » يرد طه حسين عليه قائلاً ساخراً : « من الصعب أن نناقش رأياً كهذا ؛ لأننا لا ندرى ماذا يقصد ابن خلدون بسياسة الملك !! » ثم يستطرد قائلاً : « ليس لنا أن ندخل هنا فى تفاصيل الإصلاحات القيمة التى استحدثتها حكومات الخلفاء الراشدين والأمويين وبنى العباس . على أنه من المحقق أن العرب من

بين جميع الأمم التي قبضت على ناصية الحكم فى الدولة الإسلامية فى العصور الحديثة كانوا أقدر وأعدل من تولّى حكمها ، وأمهر من عرف أن يهيئ لشعوبها أسباب التقدم العقلى والمادى »[1] .

وحتى فيما يتعلق بالبدء فإن طه حسين يرفض حملة ابن خلدون ضدهم ، تلك الحملة الشعواء التى شنها عليهم . إن طه حسين يمضى يدافع عنهم قائلاً : « ألا يكفى ابن خلدون أن تلك القبائل البدوية التى خرجت من القفار ، والتى كانت حتى خروجها بعيدة عن كل مجتمع متمدن قد وصلت إلى أن تفرض دينها ولغتها على قسم عظيم من العالم الرومانى والفارسى القديم » .

ويمضى طه حسين منتهزاً الفرصة فيغمز من قناة ابن خلدون معرّضاً بمنهجه فى فهم التاريخ قائلاً : « وإذا كان ابن خلدون لم يفهم بأحسن مما فهم أن الحضارة التى تمتع بها هى من صنع العرب ، فلا ريب أن ذلك لأن المذهب الذى يدرس به التاريخ ضيق جداً » .

ومن المؤرخين العرب المعاصرين الذين يذهبون مذهب الدكتور طه حسين ، الأستاذ محمد عبد الله عنان الذى يعتقد اعتقاداً جازماً بأن ابن خلدون يقصد إهانة العرب أنفسهم ، ويعنى بذلك سكان الجزيرة العربية وليس الأعراب أو البدو ، ويبرر اعتقاده هذا بأن ابن خلدون وهو يشرح نظريته « فى أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب » يذكر –أى ابن خلدون– أن العرب حينما تغلبوا على العراق والشام تقوض عمرانهما ، وكذلك خربت إفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم ، كذلك يشير الأستاذ عنان إلى مقولة ابن خلدون إن حملة العلم فى الإسلام أكثرهم من العجم ، ثم يقرر أن ابن خلدون فى هذا السياق واضح جدًّا فى أنه يقصد

(١) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ترجمة محمد عبد الله عنان ص ١٠٢ .

العرب الأصليين ، ويستطرد فى حماس قائلاً : وفى مقدمتهم النبى العربى والصحابة والتابعون وسائر سكان شبه الجزيرة العربية[٢] .

على أن الأستاذ عنان فى الوقت الذى يقرر فيه أن ابن خلدون يقصد بالسوء العرب لا الأعراب يعود فيختلف مع ابن خلدون ، ويجرح رأيه ويدحض حججه مقرراً أن العرب هم الذين افتتحوا وهاد ومفاوز الأناضول وأرمينية ، وتوغلوا فيما وراء فارس ، وافتتحوا شمال إفريقية حتى المغرب الأقصى ثم إسبانيا ، وعبروا جبال البرنيه إلى فرنسا ، وهذه كلها أقطار وعرة ، وليست من البسائط التى يسهل غزوها ، وقد افتتحها العرب جميعاً فى أقل من قرن .

وينتقل الأستاذ عنان من تصحيح خطأ ابن خلدون فى شأن العرب والحرب وشجاعتهم وجسارتهم إلى تصويب خطأ آخر وقع فيه ابن خلدون حين نسب إلى العرب تخريب الأقطار التى فتحوها قائلاً : إن العرب لم يخربوا هذه الأقطار ، ولكنهم على العكس من ذلك أقاموا فيها دولاً ومجتمعات عامرة زاهرة ، ثم يستطرد قائلاً : ويكفى لكى ندحض نظرية ابن خلدون فى خواص الفتوح العربية أن نستشهد بقيام الدولة الأموية فى المشرق ، ثم قيام الدولة الإسلامية فى إسبانيا .

وأما تحامل ابن خلدون على العرب فيعزوه الأستاذ عنان إلى أنه برغم انتساب ابن خلدون إلى أصل عربى فإنه ينتمى فى الواقع إلى الشعب البربرى الذى افتتح العرب بلاده بعد مقاومة عنيفة ، وفرضوا عليه دينهم ولغتهم واضطروه بعد طول نضال إلى أن يندمج فى الكتلة الإسلامية ، وأن يخضع راغماً لرئاسة العرب فى المغرب وإسبانيا ، هذا وقد ورث البربر بُغْض العرب ، وقد نشأ ابن خلدون فى هذا المجتمع البربرى ، يضطرم بمشاعره وتقاليده ، ونشأت فيه أسرته قبل مائة عام ، ونعمت برعاية الدولة الحفصية الموحدية التى ترجع إلى أصول بربرية ، فليس غريباً بعد ذلك أن يصدر ابن خلدون أشد الأحكام وأقساها على العرب[٣] .

---

(٢) ابن خلدون ، حياته وتراثه الفكرى ص١٢٧ ، ١٢٨ الطبعة الثالثة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .
(٣) المصدر السابق ص ١٢٩ .

(٢)

من يرون العكس

هذا بعض ما كان من خبر بعض الباحثين الذين يرون أن ابن خلدون قصد بتحامله العرب وليس الأعراب . على أن هناك فريقاً كبيراً أيضاً من العلماء والباحثين المسلمين والأجانب يرون أن ابن خلدون قصد بلفظ العرب الذى استعمله فى مجال التحامل ، الأعراب والبدو ، وليس العرب .

من هؤلاء الدارسين المتبحرين الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى ، وهو صاحب دراسات عديدة جليلة معتمدة عن ابن خلدون ، ومنهم الأستاذ ساطع الحصرى ، ومنهم الأستاذ جميل بيهم الذى يقول : لقد كان ابن خلدون يذم البدو دون العرب فى الفصول الأربعة التى جاءت تحت عنوان « فى العمران البدوى والأمم المتوحشة والقبائل » كما كان واضحاً فيما بعد بأنه كان يطرى العرب ويشيد بهم وبحضارتهم فى الإسلام وما قبله ، ولكن مصدر الالتباس يرجع إلى أنه فى الحالين استعمل كلمة العرب ، فترك المجال للشعوبيين لأن يتجاوزوا قصد المؤلف إلى التمسك باللفظ دون المعنى ، وإلى اتخاذها حجة لهم للتنديد بالعرب والحط من شأنهم[٤] . غير أن هذا التخريج من جانب الأستاذ بيهم لا يكاد يشفى غلة .

ومن الباحثين غير العرب الذين فهموا مقصد ابن خلدون فى حديثه عن العرب بأنهم الأعراب البدو ، البارون دوسلان الذى ترجم المقدمة إلى اللغة الفرنسية حوالى منتصف القرن التاسع عشر .

لقد ألحق البارون دوسلان بترجمته للمقدمة معجماً لألفاظها . وفيما يتعلق بالفصل الذى عنوانه « فصل فى أن جيل العرب فى الخلقة طبيعى » يقرر أن لفظ العرب

---

(٤) العروبة والشعوبيات الحديثة ص ٥٣ ، ٥٤ .

الذى استعمله ابن خلدون قد عنى به البدو الرحل ، وتلك هى عبارته الفرنسية :

Les arabes d' Ibn khaldoun sont les Arabes Nomades.

وكذلك ذهب المؤرخ التركى جودت باشا ، فترجم كلمة العرب كما جاءت فى عناوين فصول المقدمة بـ « قبائل عربية » أو القبائل العربية[٥] .

أما لماذا فهم كل من البارون دوسلان وجودت باشا لفظ العرب على أنه البدو الأعراب ، فلأن كلاً منهما غير ذى خلفية تسىء الظن بابن خلدون ، ولأن العرب كأمة أبرياء من تلك الصفات التى جاءت على لسان ابن خلدون ، ولأنهم بعد ذلك بناة أمجاد وفتوح ، وأصحاب عقيدة وحضارة . هذا ما قد وقر فى ذهن العالمين غير العربيين .

(٣)

رؤيتنـــا للموضـــوع

ولكن ما لنا لا نحاول الاقتراب من تلك النصوص التى أثارت هذا الجدل – وقد سجلنا عناوينها فى مستهل الفصل – ونستجلى معانيها ونستنطق مراميها ونستبين أهدافها من خلال الحدث والسياق .

يقول ابن خلدون فى النص الأول الذى عنوانه « إن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط » : « إنهم بطبيعة التوحش الذى فيهم أهل انتهاب وعيث ، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ، ويفرون إلى منتجعهم بالقفر ، ولا يذهبون إلى المزاحفة والمحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم ، فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه إلى ما يسهل عنه ولا يعرضون له ، والقبائل الممتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة عن عيثهم وفسادهم ؛ لأنهم لا يتصنعون إليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب »[٦] .

---

(٥) عبد الرحمن بن خلدون للدكتور على عبد الواحد وافى ص ٢٤٣ .

(٦) المقدمة ص ١٤٩ – طبعة ثالثة بيروت .

إن هذه الصفات التى وصفها ابن خلدون بداهة لا تنطبق إلا على الأعراب دون العرب ، من حيث الانتهاب وعيث الفساد والفرار إلى منتجعهم بالقفر ، فالعرب عاشوا من قديم فى مكة ويثرب والطائف وصنعاء وغيرها من أمصار الجزيرة العربية ولم يصدر عنهم شيء مما ذكره ابن خلدون ، وأما الأعراب فإنهم يسعون إلى الغزو والانتهاب ، وهم على عكس قول ابن خلدون ، فلا تصدهم بسائط أو جبال ، ولا تعوقهم سهول أو وعورة ، ولا تزال بعض قبائلهم إلى اليوم على هذا النهج من السلوك ما وجدت إليه من سبيل . ولقد شاهد كاتب هذه السطور بنفسه جحافل الأعراب من قبائل اليمن وهى تهاجم مدينة صنعاء سنة ١٩٤٨ قادمين من أقاصى البقاع ، مجتازين الهضاب ، متسلقين الجبال ، وكان رصاص المدافعين عن صنعاء يحصدهم حصداً ، فما كان ذلك يزيدهم إلا ضراوة واستماتة فى الاندفاع والهجوم ، ولقد انتهبوا صنعاء ، وحملوا معهم كل ما تحويه مساكنها ومبانيها من أثاث ومتاع على ظهور إبلهم إلى مواطنهم ، حتى الأبواب والنوافذ الخشبية خلعوها لكى يشعلوها ناراً ويستدفئوا بها . إن هؤلاء هم الأعراب وليس العرب . يبقى بعد ذلك أنه كيف غاب عن ذهن ابن خلدون أن العربى – بدوياً كان أم حضرياً – ليس أهلاً لركوب المخاطر واقتحام المعاقل ، وهو يعلم أنهم فتحوا فارس وسجستان وبلاد الجبل وأرمينية والأناضول فى المشرق ، وجبال أطلس والأندلس وسلسلة جبال البرنيه المنيعة حتى وصلوا إلى فرنسا ، وهو ما أشار إليه الأستاذ عنان عند مناقشته هذا الموضوع ، إذن هم الأعراب الذين قصدهم ابن خلدون وليس العرب .

يقول ابن خلدون فى النص الثانى الذى عنوانه « إن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب » ما نصه : « والسبب فى ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم ، فصار لهم خلقاً وجبلّة ، وكان عندهم ملذوذاً ، لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة ، وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له ، فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة وا[illegible] لعلف ، وذلك مناقض

للسكون الذى به العمران ، ومناف له ، فالحجر مثلاً إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافى القدر ، فينقلونه من المبانى ويخربونها عليه ويعدونه لذلك ، والخشب أيضاً إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم ، فيخربون السقف عليه لذلك ، فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذى هو أصل العمران ، هذا فى حالهم على العموم ، وأيضاً فطبيعتهم انتهاب ما فى أيدى الناس ، وأن رزقهم فى ظلال رماحهم ، وليس عندهم فى أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه ، بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه »[٧] .

لعلنا فى غنى مرة ثانية عن أن نؤكد أن هذا الكلام لا ينطبق على العرب فى شىء ، وإنما ينطبق على الأعراب ، ذلك أن ما أسماه ابن خلدون باستحكام عوائد التوحش ، والرحلة والتغلب ، وذكر ألفاظ الحجر والأثافى ، وتخريب المبانى ، والخيام والأوتاد ، كل ذلك من شأن الأعراب وبيئتهم ، وليس من شأن العرب ساكنى الأمصار وأصحاب العمران ، هذا فضلاً عمّا ذكره من أن رزقهم فى ظلال رماحهم ، وليس عندهم فى أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه إلخ .... كل ذلك ينطبق بداهة على الأعراب والبدو،وليس على العرب بالمفهوم العام .

ومن المؤسف أن يتورط المؤرخ الكبير فى أخطاء تاريخية حين يذكر فى هذا الفصل ما نصه : « وانظر إلى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه ، وأقفر ساكنه ، وبدلت الأرض فيه غير الأرض ، فاليمن قرارهم خراب إلا قليلا من الأمصار ، وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذى كان للفرس أجمع ، والشام لهذا العهد كذلك ، وإفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خراباً كلها ، بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومى كله عمراناً »[٨] .

---

(٧) المقدمة ص ١٤٩ .

(٨) المقدمة ص ١٥٠ .

إنه ليس بصحيح أن العراق قد خرب عمرانه حسبما ذكر ابن خلدون ، وكذلك الشام ، وكيف يتسنّى لابن خلدون أن ينسى العمران الهائل الذى أنشأه العرب فى العراق والأقطار الشامية . إن ابن خلدون يناقض نفسه بنفسه ، فقد ذكر فى صفحة ٣٤٣ من المقدمة « أن بغداد وحدها كان بها خمسة وستون ألف حمّام » . ولنا أن نتساءل والأمر كذلك : إذا كانت الحمامات وحدها بهذا العدد الهائل ، فكيف كانت صورة العمران آنذاك من قصور ومساكن ومساجد ومدارس ومستشفيات وأسواق ومتاجر ومصانع وبساتين وحدائق ، ناهيك ببغداد الرشيد والمهدى من قبل ، وبغداد المتوكل من بعد . على أن ابن خلدون لا يلبث أن يكفينا مئونة التساؤل فيستطرد قائلاً : « وكانت –أى بغداد– مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين ، وكذا حال القيروان وقرطبة والمهدية فى الملة الإسلامية ، وحال مصر القاهرة بعدها فيما بلغنا –والكلام لا يزال لابن خلدون– لهذا العهد » .

إن ما يقال عن هذا العمران العظيم فى العراق على أيام العباسيين يقال أيضاً عن بلاد الشام فى عصر الأمويين ، وقد كان عبد الملك والوليد وهشام بناة ملك ومنشئى عمران .

إن الفتوحات فى كل الحروب وفى كل الأزمنة يصحبها الكثير من التخريب ، ولكن لا ينبغى أن يطلق على العرب فى حروبهم هذه الصفة ؛ لأنهم كانوا أشرف من حارب وأرحم من فتح ، وقد كان الفاتحون العرب يلتزمون آداباً وحدوداً ألزمهم بها الخليفتان ، الأول والثانى : ألّا يحرقوا زرعاً ، ولا يقعروا نخلاً ، ولا يقتلوا طفلاً أو امرأة أو شيخاً أو كاهناً ، إلى غير ذلك من مواد الدستور الإسلامى فى الفتوح .

ثم ما بال ابن خلدون لم يذكر حروب الفرس والروم وما جرى فيها من ويلات ، وقد كان التخريب أقل مصائبها ، وماذا كان يكتب ابن خلدون لو قدر له أن يعيش فى زماننا ويشهد ويلات الحرب العالمية الثانية التى محت العمران فى كل من ألمانيا وانجلترا ،

واجتث مدناً كبرى فى اليابان بواسطة أبشع ما توصل إليه الفكر البشرى من أدوات التخريب ؟ أكان يظل على رأيه من العرب – والمقصود الأعراب – إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب ؟! ثم ماذا كان سيقوله عن اليهود وما يفعلونه فى الفلسطينيين ؟

يبقى بعد ذلك أن نسجل ما نتصوره دافعاً لابن خلدون حتى كتب هذا الفصل بهذه الصورة البشعة عن العرب . إن ابن خلدون قد تمثل فيما سلف من قول بأفعال بنى هلال وبنى سليم ، وهؤلاء الأقوام وحلفاؤهم قد عاثوا فى المغرب فساداً ، وكان ابن خلدون يقيم تحليلاته ويجرى تطبيقاته على البيئة المغربية وحدها فى أول أمره ، وقد مر بنا قبل قليل حديثه عن عمران بغداد ، وعمران مصر التى لم يكن قد زارها بعد طبقاً لعبارته التى يقول فيها « وحال مصر القاهرة بعدها فيما بلغنا » .

الحقيقة أن الصورة التى تكونت فى مخيلة ابن خلدون ورسخت فى ذهنه عن القبائل العربية كان مصدرها الأول ما فعله بنو سليم وبنو هلال وأحلافهم فى شمال إفريقية ، وهى صورة قاتمة تنتهى به إلى سوء الظن ، وإصدار أحكام ليست فى صالحهم ، وهو غير ملوم لو حدد الحكم الذى أصدره عليهم ولم يجعله ذا صفة جامعة شاملة .

إن قبائل سليم وهلال ورياح وعدى وأحلافهم قد أنزلوا بالأقاليم الإفريقية والمغربية الكثير من التخريب والنهب والسلب على مدى قرن ونصف من الزمان ، لقد خربوا مدينة القيروان وضواحيها ، وفعلوا الشىء نفسه فى كل مكان حَلُّوا به ، مثل تونس وسوسة والمهدية ، وأوقعوا الهزائم بكثير من قبائل البربر المعروفة بقوة الشكيمة وشدة المراس ، وأدخلوا الرعب إلى القلوب والفزع إلى النفوس ، بل إن هذه القبائل حين استقرت فى بعض المناطق بدأت تمارس أدواراً مصيرية فى تاريخ المنطقة ، فقد عقد بعض ملوك بنى غانية – حكام جزر البليار – حلفاً مع هذه القبائل العربية ، واستخدموهم فى ضرب الموحدين ، والاستيلاء على إفريقية خلال معارك استمرت نحو

ربع قرن من الزمان ، جرى فيها من ألوان النهب والسلب والاستباحة والتخريب الشيء الكثير الذى توارث الناس روايته وترديده لعدة أجيال ، بحيث وصل إلى ابن خلدون عن طريق الرواية والقراءة . وهو حين يذكر كيف خرب العرب اليمن والعراق والشام يستطرد قائلاً ، وهو ما ألمحنا إليه قبل قليل : « .... كذلك وإفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها ، وعادت بسائطه خراباً كلها ، بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومى كله عمراناً ، تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدر »[٩] .

إذا كان حكم ابن خلدون على العرب بالوحشية والتخريب قائماً على ما سمعه بالمغرب وإفريقية من أفعالهم ، فإننا لا نلومه إذا ما كان الحكم مقتصراً على تلك القبائل من هلال وسليم وبقية الطوائف المحالفة لها ، أما أن ينصرف الحكم إلى سائر العرب فذلك أمر يحتاج إلى حجاج ونقاش .

على أننا نبادر إلى تقرير أن هذه القبائل التى عبرت إلى إفريقية والمغرب وعاثت فى الأرض فساداً ، لا تمثل سلوك قبائل العرب جميعاً – على ما فى قبائل العرب البدو من غلظة وقسوة – ذلك لأن هذه القبائل من سليم وهلال ورياح فيها من أخلاق القرامطة – وما أدراك ما القرامطة – الشيء الكثير ؛ ذلك أنهم كانوا حلفاء للقرامطة ، واشتركوا معهم فى كثير من غاراتهم البربرية التى ربما تعفف التتار عن بعض فظائعهم ، فالقرامطة كثيراً ما أغاروا على حجاج بيت الله وأعملوا فيهم السيف ، وطموا بئر زمزم بجثث القتلى من الحجاج ، بل تمادوا فى وحشيتهم فهدموا الكعبة ، وسرقوا الحجر الأسود الذى بقى فى حوزتهم فى « هجر » بضعة وعشرين عاماً .

نقول إن هذه القبائل التى استمد ابن خلدون حكمه على العرب جميعاً من خلال

---

(٩) المقدمة ص ١٥٠ وكتاب العبر جـ ٦ ص ١٣ – ١٦ .

سلوكها فى المغرب وإفريقية كانت حليفة للقرامطة ، واشتركت معهم فى محاولة غزو مصر سنة ٣٦٨هـ ، على عهد العزيز بالله الفاطمى بن المعز لدين الله ، فلما انهزم القرامطة استبقى الخليفة الفاطمى هذه القبائل وأسكنهم بصعيد مصر فيما يعرف الآن بمحافظة سوهاج ، وهناك تكاثروا ، ومع تكاثرهم زادت شرورهم ، فقرر الخليفة الفاطمى المستنصر التخلص منهم بحيلة بارعة ، فأغراهم بالارتحال إلى إفريقية ، وبذل لهم الأموال الكثيرة وأمدهم بوسائل الارتحال ، وبذلك تخلص من شرورهم من ناحية ، ورزأ بهم خصومه من آل زيرى الذين كانوا يحكمون تونس فى ذلك العصر من ناحية أخرى ، فطبقوا فى ارتحالهم أخلاق القرامطة ، من نهب وسلب وقتل وهدم وتخريب ، وظلوا يضربون فى أكناف الأرض منطلقين من مصر متجهين إلى أقصى الغرب والقرمطة سلوكهم والتخريب فى ركابهم . إذن فالمقصود الذى تفصح عنه حقيقة الأحداث هم الأعراب وليس العرب .

وفى النص الثالث الذى عنوانه « العرب أبعد الناس عن سياسة الملك » يقول ابن خلدون « والسبب فى ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم ، وأبعد مجالاً فى القفر ، وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها ؛ لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش »(١٠) وهى نفس الصفات التى أطلقها عليهم فى فصوله السابقة وكررها أكثر من مرة . ويمضى فى القول ذاكراً إيلافهم التوحش وأخذ ما فى أيدى الناس ، ثم يتحول إلى القول بأن هذه الطباع قد أبعدتهم عن سياسة الملك .

ولكن لا يلبث ابن خلدون ، وهو عالم بممالك العرب ، أن يقول : « وإنما يصيرون إليها — أى إلى سياسة الملك — بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك منهم ، وتجعل الوازع لهم من أنفسهم ، وتحملهم على دفاع الناس بعضهم ببعض ، واعتبر ذلك بدولتهم فى الملة لما شَيَّدَ لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها

---

(١٠) المقدمة ص ١٥١ .

المراعية لصالح العمران ظاهراً وباطناً ، وتتابع فيها الخلفاء ، عَظُمَ حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم » ثم يستطرد قائلاً : « كان رستم إذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول أكل عمَرُ كبدى ، يعلّم الكلابَ الآداب »[11] .

إن أحداً لا يختلف مع ابن خلدون فى هذا النص من حيث إن الإسلام سما بالعرب خلقاً وسلوكاً ووحد صفوفهم ، وآخى بينهم ، وألف بين قلوبهم ، وجعلهم أعظم أمة على وجه الأرض ، وقد أيد القرآن الكريم هذه الظاهرة التى تشبه المعجزة فى قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[12]

وأما أن ينعت رستم المسلمين بالكلاب ، فإن ذلك لا يعنى أنهم كلاب ، وإنما كانوا جند الله الذين أوقعوا به شر الهزائم ، وكان قبلهم لا يعرف الهزيمة ، ثم سلّوا عرش كسرى الوثنى وأبدلوا به دولة تقوم على توحيد الخالق ونشر العدل وإشاعة الأمن بين الناس ، هذا وإن من كان فى موقع رستم لا ينتظر منه أن يمدح المسلمين أو يشيد بهم ، ومن ثَمَّ لم يكن التوفيق فى جانب ابن خلدون حين أقحم قول رستم فى هذا المجال .

هذا وقد كان للعرب ملك قبل الإسلام تمثل فى حمير والتبابعة وغيرهم ، وكان ملكهم فى الإسلام أعظم وأشمل وأكمل ، وإن أمة من الأمم – قديمة كانت أو وسيطة أو حديثة – لم تنجب من الملوك بناة الدول ومنشئيها مثلما أنجبت الأمة العربية فى ظل الإسلام ، لقد أنجبت عبد الملك بن مروان المنشئ الحقيقى للدولة المروانية الأموية ، وأبا جعفر المنصور منشئ الدولة العباسية ، وعبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل ، والمعروف بصقر قريش ، الذى أنشأ الدولة الأموية الإسلامية فى الأندلس ، وعبد الرحمن الناصر الذى دانت لسلطانه ملوك الدول الأوربية ، فخطبت وُدَّهُ وتحامت

(١١) المقدمة ص ١٥٢ .

(١٢) سورة الأنفال الآية ٦٣ .

جانبه ، كما أنجبت ملوكاً عظاماً –إن لم يكونوا عرباً من حيث الأصول والدماء فقد عرّبهم الإسلام– من أمثال صلاح الدين الأيوبى ، والظاهر بيبرس ، والغورى وقطز .

ويبقى بعد ذلك أن من ذكرهم ابن خلدون فى مستهل هذا الفصل إنما هم الأعراب البدو وليس العرب ، وأما ما أسداه الإسلام إلى العرب من هداية وعزة وأمجاد ، فليس موضع نقاش ، كما أنه ليس داخلاً فى لحمة الموضوع الذى نحن بصدد مناقشته ، وإن إعزاز الإسلام للجماعات حتى أنشأت ممالك عزيزة لم يكن خاصًّا بالعرب وحدهم ، وإنما خص كل من التزموا بالإسلام ، ذلك أن فاتحى الهند من الأسرة الغزنوية لم يكونوا عرباً وإنما كانوا من أتراك وسط آسيا ، وفى مقدمتهم السلطان سبكتكين وولده محمود الغزنوى ، وأن فاتحى أرض الأناضول والقسطنطينية والمنساحين فى جبال أوربا وسهولها حتى وصلوا إلى فيينا مروراً بكل دول البلقان لم يكونوا عرباً وإنما كانوا من الأتراك السلاجقة ، وإن هذا النمط من الحديث بالغ الطول ، وليس هذا مكانه .

ولابن خلدون فصل عنوانه هكذا « إن المبانى التى كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب إلا فى الأقل »[١٣] وابن خلدون معنىّ بالعمران ، فلا غرابة أن يتحدث عن المبانى وأشكالها وعمرانها وخرابها ، ولكن يبقى السؤال قائماً وهو : هل يقصد ابن خلدون بمن ذكرهم فى عنوان هذا الفصل العرب أو الأعراب ؟ إن ابن خلدون يجيب بنفسه عن السؤال من منطلق الأسباب التى تؤدى إلى ذلك ، فيقول :

« والسبب فى ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه – ولا يزال الكلام لابن خلدون – فلا تكون المبانى وثيقة فى تشييدها » وبعد أن يذكر أن العرب قلّما يراعون حسن الاختيار فى تخطيط المدن فى المكان وطيب الهواء والمياه والمزار والمراعى ، يقول : « والعرب بمعزل عن هذا كله ، وإنما يراعون مراعى إبلهم

(١٣) المقدمة ص ٣٥٩ .

خاصة ، لا يبالون بالماء طاب أو خبث ، ولا قلّ أو كثر ، ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية لانتقالهم فى الأرض ونقلهم الحبوب من البلد البعيد ، وأما الرياح فالقفر مختلف للمهاب كلها ، والظعن كفيل لهم بطيبها » .

إن ابن خلدون يقرر صراحة أنه يقصد العرب البدو الذين هم الأعراب ، ثم يذكر المراعى والإبل والانتقال فى الأرض والقفر والرياح ومهابّها والظعن والارتحال .

ولقد أورد ابن خلدون هذا الكلام إن لم يكن بكل ألفاظه فبأكثرها وبكامل معانيها فى الفصل الثانى من موضوع العمران البدوى والأمم الوحشية ، وذكر فيه العرب ومن فى معناهم ، وظعون البربر وزناتة بالمغرب ، والأكراد والتركمان بالمشرق ، واستطرد موضحاً : « إلّا أن العرب أبعد نجعة وأشد بداوة ؛ لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط »[١٤] .

يتضح الآن بجلاء أن من قصدهم ابن خلدون هم الأعراب وليس العرب ؛ لأن كل ما ذكره فى الفصول التى تناول بها العرب إنما ينطبق على الأعراب البدو دون غيرهم .

لقد شيد العرب مبانى عظيمة خالدة حتى الآن مثل المسجد الأموى بدمشق ، والمسجد الأقصى ، ومسجد الصخرة فى مدينة القدس ، صحيح أن كثيراً من التجديدات والتحسينات أدخلت عليها ، ولكن ذلك لا يمنع الحقيقة التاريخية التى تقرر أن مبانى هذه المساجد بدأت فخمة شاهقة . ولقد اختط العرب عدداً من المدن العظيمة مثل البصرة والكوفة وواسط ورصافة هشام والفسطاط والقيروان ، وعدداً من المدن فى الأندلس فور فتحهم إياها ، وأطلقوا على بعضها أسماء مدن المشرق ، ولقد عاب ابن خلدون موقع كل من البصرة والكوفة ، مع أن البصرة ذات موقع فريد

---

(١٤) المقدمة ص ١٢١ ، ١٢٢ .

لاختطاطها على نهر وبحر فى وقت واحد ، هما شط العرب والخليج العربى ، كما تقع الكوفة على نهر الفرات ، وأما الفسطاط فتقع على نهر النيل قبالة جزيرة الروضة . هذا ويحدثنا التاريخ عن قصور الأمويين على ضفاف فروع بردى والغوطة والأخيضر فى العراق ، ابتداء من يزيد بن معاوية وانتهاء بمروان بن محمد ، هذا فضلاً عن عمران الفسطاط التى اهتم المؤرخون والرحالة بوصفها والإشادة بها .

وأما ما يتعلق بالمدن الصغيرة والقرى فإنه مما لا شك فيه أنهم أنشأوا الآلاف منها فى صعيد مصر والدلتا وربوع الشام ، ولا تزال حتى اليوم تحمل أسماءها العربية ، وإن معاجم البلدان وكتب الرحالين تمدنا فى هذا الميدان بما يشهد للعرب بالعمران الموصول وليس بالخراب السريع .

ومما يزيد الأمر وضوحاً فى أن مقصد ابن خلدون الأعراب وليس العرب ما ذكره فى الفصل الذى عنوانه « فى أن العرب أبعد الناس عن الصنائع » ما نصّه : « والسبب فى ذلك أنهم أعرق فى البدو وأبعد عن العمران الحضرى وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها ، والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عُدْوَةَ البحر الرُّومى أَقْوَمُ الناس عليها ؛ لأنهم أعرق فى العمران الحضرى ، وأبعد عن البدو وعمرانه ، حتى إن الإبل التى أعانت العرب على التوحش فى القفر والإغراق فى البدو مفقودة لديهم بالجملة ، ومفقودة مراعيها والرمال المهيئة لنتائجها »[١٥] .

مرة أخرى يبدو فى وضوح كامل لفظاً ومعنىً وقرينةً واصطلاحاً أن ابن خلدون يقصد الأعراب البدو .

ولكى نختم الحديث فى هذا المبحث عما يقصده ابن خلدون من لفظ العرب من خلال الاستشهاد بتعريفاته وألفاظه وما يوحى به سياق أسلوبه، نورد له هذا النص

---

(١٥) المقدمة ص ٤٠٤ .

الذى يتحدث فيه عَمَّن وجبت عليهم الهجرة مع الرسول ﷺ ، من مكة إلى المدينة . يقول ابن خلدون : « فاعلم أن الهجرة افترضت أول الإسلام على أهل مكة ؛ ليكونوا مع النبى ، ﷺ ، حيث حل من المواطن ، ينصرونه ويظاهرونه على أمره ، ويحرسونه ، ولم تكن واجبة على الأعراب أهل البادية ؛ لأن أهل مكة يمسّهم من عصبية النبى ، ﷺ ، فى المظاهرة والحراسة ما لا يمس غيرهم من بادية الأعراب ، وقد كان المهاجرون يستعيذون بالله من التعرّب وهو سكنى البادية »[١٦] .

إن ابن خلدون يفرق هنا تفريقاً كاملاً بين العرب والأعراب ، أى بين أهل مكة ، وهم العرب طبعاً ، وبين « الأعراب أهل البادية » طبقاً لألفاظه وكلماته ، ثم يزيد الأمر وضوحاً بقوله إن المهاجرين – وهم العرب المكيون – كانوا يستعيذون بالله من التعرّب وهو سكنى البادية .

هكذا يكون مقصد ابن خلدون الأعراب ، ذلك أن كل الأوصاف والنعوت وألوان السلوك التى ذكرها ملحقة بلفظ العرب تنطبق جميعها على الأعراب أهل البادية الذين استعاذ العرب المهاجرون من صفاتهم وسلوكهم .

يبقى بعد ذلك منطق التعقل والاتزان فى ختام هذا المبحث ، لقد كان ابن خلدون عربيًّا من أصول حضرمية ، وكان يعتز بلقب الحضرمى ، وآية ذلك حرصه على إثباته فى أهم المواطن . إنه يقول فى افتتاحية كتابه « العبر » : « يقول العبد الفقير إلى رحمة ربه ، الغنى بلطفه ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى وفقه الله تعالى ..... » .

وفى إجازته التى أجاز بها شيخ الإسلام أحمد بن حجر العسقلانى يختمها بقوله : « وكتب بذلك عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى المالكى »[١٧] .

---

(١٦) المقدمة ص ١٢٣ .

(١٧) صورة مخطوط الإجازة وردت فى كتاب محمد عبدالله عنان ص ١٠٦ .

إن ابن خلدون يلتزم بذكر نسبه العربى الحضرمى دائماً ، وهو ما يجعلنا لا نتفق مع الأستاذين الدكتور طه حسين ، ومحمد عبد الله عنان فيما ذهبا إليه من أن ابن خلدون كان يكره العرب ، وأن نشأته فى محيط بربرى دفعت به إلى ذلك . من المتصوّر أن يكره ابن خلدون الأعراب ؛ لأن العرب أنفسهم لا يحبونهم ، والله سبحانه وتعالى نعتهم فى كتابه الكريم بأنهم ﴿ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾[١٨] ، أما أن يكره المرء قومه وينعتهم بهذه القوافل من النعوت المفحشة المدمرة فذلك أمر بعيد الوقوع ، وإذا جاز أن يصدر من أحد ، فلن يكون ذلك الواحد هو ابن خلدون لعلمه وفضله .

هذا ، ولقد كان ابن خلدون من كبار علماء المسلمين وأعلام فقهائهم ، ونحن فى قراءاتنا المستفيضة – على مساحة بضعة عقود من السنين – لم نشهد فقيهاً غير عربى تحامل على العرب أو نال منهم تصريحاً أو تلميحاً ، وما أكثر الفقهاء المسلمين غير العرب ، بل العكس هو الصحيح ، فقد كانوا يمتدحون العرب ويذكرون فضلهم على الإسلام وسبقهم إليه ، ولقد ألف بعضهم كتباً فى فضل العرب ، وفى مقدمتهم القاضى العالم الأديب ابن قتيبة الدينورى ، فهل يعقل بعد ذلك أن يأتى فقيه عربى مرموق وعالم من علماء المسلمين مثل ابن خلدون لكى يسبّ العرب وينال من مروءاتهم .

يؤثر حديث شريف عن الرسول ، ﷺ ، يقول فيه : «**لا تسبوا العرب**» . وليس من شك فى أن ابن خلدون كان يحفظ هذا الحديث ، فهل يجرؤ من كان فى مثل مقامه ومكانته أن يقف من حديث رسول الله موقف المعاكسة أو التجاهل ، بحيث يضع نفسه على حافة الردة إن لم تكن الردة نفسها .

ولقد كان ابن خلدون يلقى دروسه فى الأزهر فى مواضيع شتى من فقه وحديث وتاريخ وأدب ، وكان يعرض لأفكاره التى جاءت فى المقدمة ، ومنها ما يتعلق ببحثنا هذا ، فهل يتصور أن تلاميذه المصريين كانوا يتقبلون منه القول – فيما لو كان يقصد العرب – بدون ثورة أو اعتراض ؟!

---

(١٨) سورة التوبة الآية ٩٧ .

كذلك كانت « المقدمة » فى صورتها النهائية بين أيدى الناس فى مصر ، وعلى وجه خاص ، العلماء والمثقفين ، وكان لابن خلدون بينهم الكاره والحاسد ، وأخبار خصوماته معروفة ، وقد أوردها جميع من أرّخوا له ، فهل يتصور منصف أن هؤلاء الخصوم كانوا يسكتون عليه فيما لو كان يقصد التشهير بالعرب ، وهم المتربصون به ، التواقون إلى تصيّد أى خطأ يصدر عنه ؟

إن أحداً من أصدقاء ابن خلدون أو خصومه – وقد قرأوا جميعاً المقدمة – لم يثر تلك القضية ولم يشر إليها ، وهى جديرة بالإثارة فيما لو كان المقصد هم العرب لا الأعراب ، مما يؤيد وجهة نظرنا فى أن لفظ العرب الذى استعمله ابن خلدون فى فصول المقدمة إنما قصد به الأعراب من أهل البادية .